إيمانويل ليفيناس: الايتيقا فلسفة أولى

جيلالي حلوز

مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها جامعة تلمسان

الملخص:

العنوان الأساسي والأهم في فلسفة ليفيناس هو الأخلاق كفلسفة أولى، الايتيقا التي ترتبط مباشرة بالعلاقة مع الغير، الايتقيا بمعنى المسؤولية الشاملة على الغير، الايتيقا على خلاف الانطولوجيا المعاصرة التي تختزل الأخر وتخضعه لمقولات الوجود، فالشعور بالمسؤولية وحاجة الغير إلى هو ذاته الإيتيقا ".

كلمات مفتاحيه: الفلسفة. الوجود. النهائية. الأخر. الانطولوجيا. الايتيقا.

Résume :

Le titre le plus fondamentale, et la plus important de la philosophie de Levinas, est l'éthique comme philosophie première, l'éthique qui est liés directement avec l'autre, l'éthique au sens de la responsabilité totale sur l'autre, l'éthique contrairement à l'ontologie contemporaine qui résumé l'autre et la subordonne aux arguments de l'existence, le sens des responsabilités et le besoin des autres a moi, c'est la même l'éthique.

Mots-clés: philosophie, existence, totalité.l'autre, l'ontologie, l'éthique.

مقدمة

يعد ليفيناس (Emmanuel Levinas) (1905 – 1906)[1] أحد الأقطاب الفلسفية في القرن 20 ومن بين الفينومينولوجيين الأوائل الذين حملوا على عاتقهم لواء نقل الفينومينولوجيا من اللحظة الألمانية إلى اللحظة الفرنسية وإعادة تحويرها ، ومن الذين برعوا في إنتاج المفاهيم من خلال مؤلفاته العديدة وخصوصا " الكلية واللانهائي"(Totalité et Infini) 1961 ، هو فيلسوف فرنسي معاصر من أصل يهودي صاحب إتيقا الغيرية ، أنتجميتافيزيقا إتيقية فائقة العمق والإتقان ، كتب عديد التفاسير حول التوراة ، وهو من الأوائل الذين ساهموا في التعريف بفينومينولوجيا هوسرل وهيدغر في فرنسا ، فالنصوص الفلسفية الأولى لليفيناس هي دراسات خصصت لهوسرل وهيدغر وهي الخطوة الأولى لرحلته الفينومينولوجية[2].

بدأ ليفيناس دراسته للفلسفة في سترسبورغ من سنة 1923 إلى 1930 وفي سنة 1928 ذهب إلى فرايبورغ ليتابع دروس هوسرل طيلة عام كامل وبعد أن توقف هوسرل عن إلقاء المحاضرات حل محله هيدغر سنة 1929 فكانت فرصة ليلتقي به ليفيناس وكان قد قرأ " الكينونة والزمان " (être et temps) لهيدغر ، شجعه هذا الأخير رفقة بلوندل على المشاركة في لقاءات " دافوس " الفلسفية المنتظمة التي جمعته مع الفرنسيين " ليون برنشفيك " و: موريس كونداياك" والألماني " أرنست كاسيرر" ، ظهر ليفيناس في هذه اللقاءات مدافعا عن هوسرل وهيدغر ونشر حينها مقالته الأولى عن هوسرل[3]، هذا ما يعكس سعي ليفيناس الأولى للتعريف بالفينومينولوجيا عامة وبالفينومينولوجيا الهوسرلية خاصة ، ومن جهة ثانية بداية التحول الفينومينولوجي من ألمانيا إلى فرنسا والدور المحوري الذي لعبه ليفيناس في ذلك ، كونه خطى خطوة في الكشف عن التأثر الفكري الفلسفي الفرنسي بالفينومينولوجيا الألمانية ، توج سنة 1930 بتقديم اطروحة الدكتوراه بعنوان " نظرية الحدس في فينومينولوجية هوسرل " هذا العمل هو عرض للأفكار والمفاهيم الأساسية في فينومينولوجيا هوسرل والذي يعد أول عرض باللغة الفرنسية لعمل هوسرل ، لينشر سنة 1931 بالاشتراك مع " غابرييل باييفر" ترجمة " تأملات ديكارتية" (Méditation cartésiennes)[4]، ومما يعكس دوره الفعال والمحور في رحلة التحول الفينومينولوجي عامة مرة أخرى مشاركته كمؤلف سنة 1932 لأول دراسة مهمة خصصت لهيدغر في فرنسا [5]، إلا أن هذه المساهمة اتخذت منحا آخر يعكس بدأ أخر لليفيناس بعد رحلة التعريف بالفينومينولوجيا ، وهو توجهه نحو انطولوجيا هيدغر وهو ما سار عليه بعض الفينومينولوجيين بعده في فرنسا نفصد سارتر ومرلوبونتي ، هذا التوجه الجديد يطرح الكثير من التساؤلات :

لماذا الالتفات إلى انطولوجيا هيدغر؟ ما مدى التأثير الهيدغري في مقابل تأثير فينومينولوجيا هوسرل ؟ما السر وراء هذا الالتفات المفاجئ ؟هل ظل ليفيناس أسير اللحظة الفينومينولوجية الألمانية الممثلة من قبل هوسرل وهيدغر ؟

رغم كل تلك المساهمات يبقى فكر ليفيناس إلى غاية تلك اللحظة غير بين المعالم ، حيث وفي سنة 1936 غامر ليفيناس بتأمل شخصي في محاولة مختصرة تحت عنوان " الفرار" (L'évasion) كتبها في حدود العشرون صفحة حيث لا هوسرل ولا هيدغر كانا حاضرين فيها [6]، غياب هيدغر وهوسرل في هذا العمل يوحي بميلاد فينومينولوجيا فرنسية ، ميلاد عهد جديد للفينومينولوجيا عامة ، فينومينولوجية استوطنت الفكر الفرنسي بعد رحلة التحول من ألمانيا ، إلا أن هذا الغياب لا يعني الانسلاخ الكلي لليفيناس عن الفينومينولوجيا الهوسرلية ولا الهيدغيرية وإنما اللمسات الفينومينولوجية كانت حاضرة على اعتبار المرجعية التأسيسية ، فهو يوحي من جهة أخرى النتاج الحاصل على ذلك التأثر الذي ارتسم على تلك المحاولة.

حقيقة لم تكن تلك المحاولة ترق إلى مستوى فكرة الاقتراب من الوجود الخالص، وإنما كانت مدعاة لتجديد المشكلة القديمة الوجود بما هو موجود [7]،وهو تجسيد لفكرة العودة وإعادة البدأ.

هذه المحاولة التي قدمها ليفيناس ماهي إلا ملامح لفكر فلسفي فينومينولوجي فرنسي ، حيث وبعد الحرب مباشرة ظهر له عملان تم رسم فكره بشكل أكثر وضوحا وهما " الزمن والأخر "(le temps et l'autre) و" الوجود والموجود "(de l'existence a l'existant) ، كما لا يخفى على أحد أن ليفيناس هو من ترجم سنة 1930 النسخة الأولى ل" تأملات ديكارتية " لهوسرل بالإضافة إلى ذلك يمكن اعتباره المترجم الحقيقي للفينومينولوجيا في فرنسا ، كما يعد ثان أكبر قارئ لهيدغر في فرنسا .

يعد فكر ليفيناس أكثر فينومينولوجية لأنه بحث في المعيش اللا-نظري واللا-موضوعي لأنه نقد الأولويات النظرية والتمثلات داخل الفينومينولوجيا ، فبالنسبة لليفيناس هناك ثلاثة مستويات خطابية : الأخلاق ، الجمال ، وخطاب الفينومينولوجيا .أما الخطاب الفينومينولوجي فهو مرتبط بالأخلاق والجمال ، فقد قدم تحديدات للخطاب الأخلاقي والجمالي عبر تحليلات فينومينولوجية في كتاباته الفلسفية الأولى ، تحليلات الفعل القصدي ودلالات الاحساسية[8]، العنوان الأساسي والأهم في فلسفة ليفيناس هو الأخلاق كفلسفة أولى " الايتيقا التي ترتبط مباشرة بالعلاقة مع الغير ، الايتقيا بمعنى المسؤولية الشاملة على الغير ، الايتيقا على خلاف الانطولوجيا المعاصرة التي تختزل الأخر وتخضعه لمقولات الوجود، فالشعور بالمسؤولية وحاجة الغير إلي هو ذاته الايتيقا "[9].

تختلف أخلاق ليفيناس عن أخلاق كانط فهي ليست الأخلاق التي تصنع الأوامر، أي ما يجب فعله، الأخلاق النظرية التي تعني بمجموعة القواعد والسلوك التي تحدد الحق والباطل ، إنها الأخلاق التي تدعو لترك هذا النوع من الأخلاق " يجب التمييز هنا بين الأخلاق بمعنى الايتيقا(éthique) والأخلاق القطعية (moral) تبعا لهذا التمييز فالأخلاق

الليفيناسية (éthique) حيادية أخلاقيا (moralement) إن الظابط الأخلاقي الوحيد في فلسفة ليفيناس هو لقاء الأنا مع الأخر أي (الوجه لوجه)"[10] .

لقد اقترح ليفيناسايتيقا تؤسس لخير مشدود إلى الحق وقام بتوضيح العلاقة مع الأخر، فحضور الأخر بالنسبة له لا يدعو بالضرورة للصراع والعنف بقدر ما يعبر عن " علاقة قبول وفي هذا القبول تكمن انسانية الانسان "[11]

إذن تقوم فلسفة ليفيناس على فينومينولوجيا الوجه وتجربة الأخر، فشرط إقامة الايتيقا هو حضور الأخر فينومينولوجيا تشترط المسؤولية وترفض العنف ، هنا تكمن أصالة ليفيناس من خلال خرجاته النقدية ضد كل كلية ورفض للانهائي ، أين يجعل ليفيناس من الأخر علاقة مع اللانهائي زمع المطلق والمتعالي ، واعطى للزمن أهمية بالنسبة للغيرية والتي تمثل العلاقة مع المستقبل ويمهد الزمن للانفتاح على الأخر .

ومن هنا يمكن دحض كل قرار يفيد بهوسرليةليفيناس أو هيدغيريته فبقدر ما أشاد ليفيناس بكل من هوسرل وهيدغر وضرورة العودة إليهما يأتي نقده لهما على نفس القدر ، فقد كان اهتمام ليفيناسبالفينومينولوجيةالهوسرلية من خلال عمله الأول " نظرية الحدس في فينومينولوجيةهوسرل "(la théorie de l'intuition dans la phénoménologie husserlienne)حيث أشاد بأهميتها المنهجية في الكشف عن الطريقة التي يتمظهر لنا بها المعنى وعلاقتنا بالعالم على نحو قصدي مع الأشياء ، وعلى هذا الأساس عين تلك العلاقة التي تربطنا بالأخر أو بالأحرى الأنا بالأخر على اعتبار كونه فينومينولوجيا حتى أنه صرح قائلا :" لا زلت حتى اليوم فينومينولوجيا "[12]، وإن كان ليفيناس أخذ عن هوسرل فكرتا التعالي والقصدية ، فإن ما احدثه في تجربة الايتيقا نحو كشف عن عيوبها ، فقد تناول ليفيناس القصدية بخلاف معناها الهوسرلي على أنها لم تعد تتعلق بتلك الرابطة بين الذات والموضوع ، أي بين الأنا وموضوعاته ، وتختلف عن الإدراك المتعالي في عملية المعرفة الفينومينولوجية ، فقد استبعد تلك القصدية التي تحفظ مركزية الأنا أمام الغير ودحض فكرة تعالي أحدهما عن الأخر ، وقال بعلاقة المجاورة (proximité) والتي تعني التقرب (approcher) من الأخر والشعور به ولمسه وكذا الاحساس به خلافا لما يعطى مكن الظاهر ومن عملية المعرفة "[13].

"إن المجاورة التي تحدث عنها ليفيناس هي ليست قصدية بالمعنى الهوسرلي باعتبارها تطابق الفكر مع الموضوع، بل قصدية تفرض مسبقا فكرة اللانهائي ، اللاتطابق لأنها ترمي إلى بلوغ تعالي اللانهائي انطلاقا من علاقة الأنا بالأخر ايتيقيا"[14]، لأن الأخر عند ليفيناس هو غيرية الأنا في مقابل الأنا مستقل عن الأنا وحر غريب عن الأنا وعدم اختزاله في

الأنا هو الذي يفرض عليا المسؤولية الايتيقية التي يحددها خطاب التعالي والميتافيزيقا وهي أول خطوة في عملية نقد المعرفة وتجربة القصدية كما تتم [15].

ومما يؤكد وجاهة وأصالة ليفيناس مرة أخرى البعد الميتافيزيقي في فلسفته الذي يعتبر خلاله الأخر أو بالأحرى وجه الأخر حالة تجل للمطلق الذي هو الخالق " الله " وهو المنطلق الأساسي في فلسفته حيث يعطي للأخر ككائن له مزاياه المختلفة عن غيره من الموضوعات في العالم تجعله يخرج من ذاتيته نحو ذاتية موجودة فيما وراء الكل، لا يمكن للفكر أن يحتويها ، فالإنسان على حد تعبير ليفيناس حينما يدخل في علاقة ميتافيزيقية مع الأخر فإنه سيكتشف أن هذا الوجه هو اللامتناهي وهو سر التجلي الإلاهي [16].

هذا البعد الفلسفي يتجاوز ما جاء به هوسرل فيما يخص تجربة الأخرين في العالم المعيش الذي ينظر إلى الأخر حسب الفعل القصدي على أنه وجودا واقعيا عينيا يمكن إدراكه كغيره من الأشياء والموضوعات في العالم إذ يقول هوسرل :" إني أدرك الأخرين باعتبارهم موجودين واقعيا ضمن التجارب المختلفة والمتماثلة في الآن ذاته ، أدركهم كمواضيع داخل هذا العالم"[17]و بما أن قيمة الموضوع عند هوسرل مرتبط بالأنا الواعي فالشعور بالغير هو الارتباط الجسدي ، وبالتالي ما ينطبق على الموضوع يجري على الأخر على الغير لأنهم ضمن العالم ليسوا منفصلين ولا فرق بين الشخص والموضوع .

بالنسبة إلى ليفيناس حقيقة أن الأخرين ينتمون جسديا إلى العالم إلا أنهم يملكون ذواتا تنتمي للعالم ذاته لكن من خلالها يدركون ذلك الانتماء ويعيشون تجارب خاصة بالأنا إذ يسهم هذا الجسد في اثبات ماهية الجسد فهو العضوية التي تربط الشخص بالعالم ، هذا هو الفرق الذي لم ينتبه إليه هوسرل وأشار إليه ليفيناس ، وفي نفس المقام يقف ليفيناس ضد أولوية الأنطولوجي المؤسس في فلسفة هيدغر ، وهو ما يوحي مرة أخرى أنه هيدغري على اعتبار حضور هيدغر كحلقة ضمن المشروع الليفيناسي، لا على أنه هيدغري على اعتبار الالتفات إلى الانطولوجيا ، فكل كلمة قالها ليفيناس خلال مشروعه الايتيقي كان ضد هيدغر وهو ما كان جليا في كتابه " الزمن والأخر " (Temps et autre) الذي يعد بمثابة ردا على " الكينونة والزمان " خاصة فيما يتعلق بقضية علاقة الزمان بالوجود الانساني ، أين اتهمه بالوقوع في الخطأ حين أخلط بين الكائن والكينونة .

إن مقولة الأخر بوصفه فكرة مركزية تعطي للوجود معناه بالنسبة لليفيناسو أن الأخر يتجلى من خلال الوجه الذي يعد بمثابة المرآة التي تعكس حقيقة الأنا وكينونتها التي على الأخر احترامها من خلال تبادل المسؤولية حفظا للحياة الانسانية وتحقيقا للسلام الاجتماعي "[18].

على هذا النحو يبني ليفيناس علاقة الأنا بالأخر بوصفها مقابلة (Rencontre) ، هذه العلاقة التي تسمح بالحضور معا مع الحفاظ على المسافة التي تجعل الأنا والأخر على طرفي تلك العلاقة التي تصور ذلك الحوار المتعالي في علاقة

ايتيقية متعادلة تحدد فكرة المثيل (même) والمطابقة (Identique) ، لذلك يربط ليفيناس هذه العلاقة أو هذا الحوار بالمحايثة أين تبقى الذات محافظة على ذاتها يتركز اهتمامها بوجودها ، إذ يقول ليفيناس في هذا الشأن " أن يتحدث مع الأخر هو في الوقت نفسه أن نعرف الأخر ونجعله يعرفنا ، فالأخر هنا ليس فقط معروفا بل أيضا يرحب به ، ليس فقط مسمى بل وأيضا هو مدعو من طرفنا ، وأنا لا أفكر في كل ما هو بالنسبة إلي فقط بل وأيضا وفي الأن نفسه أفكر في كل ما هو بالنسبة إليه " [19].

لقد حاول هيدغر في كتابه " الكينونة والزمان " أن يبين أن الزمان ليس إطاؤرا للوجود الانساني، فالزمان هو أساس الفهم ، أما الفهم فهو نمط وجود الانسان ، فهو إذن لا يعين ماهية الانسان بل يحدد كينونته وهنا وقع هيدغر كما يقول ليفيناس في خطأ الخلط بين الكينونة والكائن ، بين فعل الكينونة (L'être) واسم الكينونة (un être) ليدخل معه في حوار .

لقد أشاد ليفيناس كثيرا بالتحليلات الانطولوجية التي قدمها هيدغر وحاول استثمارها في شرح علاقة الأنا والأخر حيث حاول الكشف عن أسس وشروط تلك العلاقة التي تربط الوجود الانساني في العالم مع الغير ، فقد اعطى هيدغر لليفيناس دفعا أكثر ، مقارنة بهوسرل ، إذ أن ليفيناس ينظر إلى هيدغر أو بالاحرى إلى فلسفة هيدغر على أنها تتمة أو تكملة لفلسفة هوسرل رغم الاختلاف الذي يميز بينهما إذ يقول :" إذا كان هوسرل قد فتح لي امكانات التحليلات الفينومينولوجية للمعرفة ، فإن هيدغر هو أول من منح هذه الامكانات أساس وضعي وعيني لوجودنا اليومي ، فقد بين أن البحث الفينومينولوجي يتوجه نحو الحقائق والماهيات الأبدية ، ومصدره في نهاية المطاف ينبع من الزمن ، من وجودنا الزماني والتاريخي "[20] ، فالوجود عند هيدغر هو وجود معية أي موجودات أخرى (l'être avec) فخاصية الدازاين الهيدغري هي معيته مع الأخرين لذلك يرفض ليفيناس هذا التصور الهيدغري حيث يقول في كتابه (الزمن والأخر) " نرفض في البداية تصور هيدغر الذي يصنع العزلة داخل علاقة سابقة مع الأخر ، ويبدو لنا هذا التصور غامضا من الناحية الانطولوجية ، فهيدغر يطرح العلاقة مع الأخر كبينية أنطولوجية للدازاين " [21]، وكان ليفيناس يقول أن تحليلات هيدغر الانطولوجية تتمحور كلها حول ما اسماه الدازاين المتوحد وهنا تغييب للأخر واستحواذ على كيانه واختزاله داخل الأنا عنوة في علاقة ترابط كما يقول ليفيناس " جنبا إلى جنب حول شيء ما ، حول حد مشترك هو بالنسبة لهيدغر الحقيقة "[22].

إن المعية التي استعملها هيدغر على حد تعبير ليفيناس لا تصف العلاقة الأصلية مع الأخر هي ليست علاقة الوجه – ل- وجه ، هي علاقة يذوب فيها الأخر في الأنا نحو عدمية في علاقة مع أخر مفقود وبالتالي " يظهر الأخر عند هيدغر في الحالة الأساسية Miteinan der sein أي كينونة الواحد الأخر "[23] .

و في مقابل ذلك يقول ليفيناس :" إننا لا نوجد فرادى أبدا ، فنحن محاطون بكائنات وأشياء نقيم معها علاقات ، إننا مع الأخرين عبر الرؤية واللمس والود والعمل المشترك ، كل هذه العلاقات متعدية transitive فأنا ألمس شيئا وأرى الأخر، لكنني لست الأخر ، فأنا وحدي وبالتالي إنها الكينونة بداخلي أي واقعة أنني موجود، انوجادي هو الذي يشكل العنصر اللازم intransitive على الاطلاق الانوجاد لا قصدية فيه ، ومن دون رابطة ، يمكن الموجودات تبادل كل شيء ما عدا الانوجاد"[24].

الهوامش:

1/ نجد في بعض المؤلفات أن تاريخ ميلاد ليفيناس كان 1906 غير أن الأمر يعود إلى أن ليفيناس ولد في الأيام الأخيرة من سنة 1905 وربما تسجيله كان بعد عدة أيام وهو ما لا يشكل فرقا

2/Jean Luc Lannoy ' il-ya' et phénoménologie dans la pensée du jeune Levinas . Revue philosophique de Louvain..quatrième série .Tome 88 .n 79 .1990. p 370 (*en ligne*)

3/ إيمانويل ليفيناس : الزمان والأخر . ترجمة : د. جلال بدلة . معابر للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى دمشق .2014 ص 06.

4/ Jean Luc Lannoy ' il-ya' et phénoménologie dans la pensée du du jeune Levinas .ibid. .p 370.

5/ Jean Luc Lannoy – ibid. p 370.

6/ibid. pp 370 – 371.

7/ ibid. p371.

8/ DetistovaAnastasia .de l'intentionnalité au sentir .la conscience non-intentionnelle dans la philosophie D'Emmanuel Levinas . Prague –juin 2009. P4.

9/ Rodolphe Calin . François sebbah – le vocabulaire de Levinas .ellipses .2002.p 23.

10/ ايمانويل ليفيناس : الزمان والأخر .المصدر السابق ص 10.

11/E. Levinas - Le temps et l'autre- broché 15 octobre 2004 .paris p 13.

12/ Richard Kearney .de la phénoménologie a l'éthique .entretien avec E. Levinas .esprit n 234. Paris .p 122.

13/ E. Levinas – en découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger – édition vrin .paris 2001. P 328.

14/ E. Levinas – Totalité et Infini. essai sur l'extériorité .livre de poche .martinusnijholf .paris. 1971. P 33.

15/ ibid. p 33.

16/ عبد الوهاب الميسري : إيمانويل ليفيناس والأخر . مجلة أوراق فلسفية . العدد 13. 2004.

17/ E.Husserl –Méditation Cartésiennes .ibid p 150.

18/ علي قصير : ايمانويل ليفيناس – فيلسوف الغيرية البناءة . مجلة الاستغراب 2018. ص 286 – 287.

19/ زهير الخويلدي : الأنا وجها لوجه مع الأخر - ليفيناس فيلسوف الغيرية . مجلة حكمة . 16 نيسان (أفريل) 2015.

20/Richard Kearney .de la phénoménologie a l'éthique .entretien avec E. Levinas .ibid. p 124.

21/ ليفيناس – الزمن والأخر المصدر السابق ص 36.

22/ المصدر نفسه ص 37.

23/ المصدر نفسه ص 37.

24/ المصدر نفسه ص 39.

المراجع:

1/ إيمانويل ليفيناس : الزمان والأخر. ترجمة : د. جلال بدلة . معابر للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى دمشق .2014 .

2/ عبد الوهاب الميسري : إيمانويل ليفيناس والأخر . مجلة أوراق فلسفية . العدد 13. 2004.

3/ علي قصير : ايمانويل ليفيناس – فيلسوف الغيرية البناءة . مجلة الاستغراب 2018.

4/ زهير الخويلدي : الأنا وجها لوجه مع الأخر - ليفيناس فيلسوف الغيرية . مجلة حكمة . 16 نيسان (أفريل) 2015.

5/ Detistova Anastasia .de l'intentionnalité au sentir .la conscience non-intentionnelle dans la philosophie D'Emmanuel Levinas . Prague –juin 2009.

6/ Rodolphe Calin . François sebbah – le vocabulaire de Levinas .ellipses .2002.

7/E. Levinas - Le temps et l'autre- broché 15 octobre 2004 .paris .

8/ Richard Kearney .de la phénoménologie a l'éthique .entretien avec E. Levinas .esprit n 234. Paris .

9/ E. Levinas – en découvrant l'existence avec Husserl et Heidegger – édition vrin .paris 2001..

10/ E. Levinas – Totalité et Infini. essai sur l'extériorité .livre de poche .martinusnijholf .paris. 1971.

11/Jean Luc Lannoy ' il-ya' et phénoménologie dans la pensée du jeune Levinas . Revue philosophique de Louvain..quatrième série .Tome 88 .n 79 .1990. (*en ligne*) .